دخل «ماني» المدينة منتصب الهامة وادعاً وكأنّه أمضى حياته جميعها في التخييل منتصراً وتجميع الغزوات المُظَفَّرة. أفيكون ذلك يقظة متأخّرة للدم الأميري الذه كان هو وأبوه قد أنكراه باستمرار؟ وإنه كثيراً ما حمل المغرقون في التديّن إلى الأنبياء أصولاً مَلَكِيّة كما لو أن لطف «السماء» لم يكن يؤكّد وحده على «الأرض» شرعيّةً كافية. أفلم يُنْسَب «يسوع» إلى سُلالة الملك «داود» و«بوذا» إلى سُلالة أمراء «الساقيا»؟ وسواء كان النبي ربّاً مُجسَّداً، أو، أفضل من ذلك، سليلَ حاكم لا يُعرف عنه شيء كثير، فينبغي الافتراض بأن بعض المريدين بحاجة إلى هذه الإضافات الهزيلة! وعلى الغِرار نفسه، وإذا كان ينبغي تصديق المؤرِّخين، فإن «ماني» كان يحمل في ذاته منذ طفولته، وحتى في تقشّف بستان النخيل الخاصّ بـ«أصحاب الملابس البيضاء»، ذلك النعت الملكي الجليل الذي يُضفي الوقار، تُراثاً بارزاً للملوك «البارتيين» الذين امتدّت إمبراطوريتهم قديماً إلى (دَبْ). وإلاّ فكيف تجرّأ على مخاطبة حفيد «أردشير»، والرؤوس المتوّجة فيما بعد؟ وكيف كان في مكنته التبختر بمثل هذا اليُسر في تلك المدينة المُحْتَضَرة؟.

لقد تقاطر إليه أهل المدينة من جميع أحيائها نافدي الصبر لمساءلته من غير أن يسمح أي منهم لنفسه مع ذلك بمواجهته، ولا حتى الذين اعترفوا به، ولا حتى الذين كانوا قد استمعوا إلى عظته في الكنيسة. وافترض «مالكوس» أن صديقه كان يتوجّه ببساطة إلى منزل الوجيه المسيحي «بر ـ توما» الذي كان قد آواهم في الليلة الوحيدة التي قَضَوْها في المدينة. بيد أنه سلك طريقاً آخر، الطريق الموصل إلى مقرّ الحاكم السابق الذي عبر سياجه من غير أن تفكّر الميليشيا البلدية التي كانت تحرسه باعتراض سبيله. وهناك أيضاً، وفيما كان كل أحد يستعدّ لرؤيته صاعداً درجات القصر، ابتعد فجأة عن الممشى المبلّط ليتقدّم خلال الحديقة باتّجاه شجرة توت أبيض، توتة ربّما كانت، حسب زعم المُسِنّين، أقدم شجرة في الناحية، وكانت تنتصب متوحّدةً فوق تربة جافّة جرداء، باسطةً في تلك الساعة نحو الشرق ظلّها الحائر.

ترجّل «ماني» ورفع ذراعيه كي يتوقّف الموكب ويتمكّن هو من المشي وحده